ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دور التجارة وقوافل الحج في انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

د. شريفة كلاع

أستاذة محاضرة

كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية

جامعة الجزائر (٣) – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

لقد شكلت الصحراء الكبرى عائقا للاتصال الحضاري بين البلاد العربية والأقاليم الإفريقية الواقعة وراءها، فكان للتجارة دور كبير في ربط الأقاليم ببعضها وتجلى ذلك في ربط الشمال الإفريقي بجنوبه، حيث نشطت قوافل التجارة الصحراوية للتجار المسلمين مع أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء، فعمد هؤلاء التجار إلى إدخال دين الإسلام غرب إفريقيا ونشره فيها، فانتقل بذلك من شمالها إلى غربها، كما ساعدهم في ذلك الحدود المفتوحة بين أقاليم المنطقة ورحلات الحج والتجارة إلى تلك المناطق، وهو ما سهل هجرة بعض المسلمين الشماليين إلى المناطق الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية والإقامة فيها، فحملوا معهم نور الإسلام وثقافته ونشروه هناك. وعليه ستحاول هذه الدراسة بيان دور التجارة وقوافل الحج في انتشار دين الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، من خلال تتبع واقع العلاقات التجارية بين الشمال الإفريقي وممالك جنوب الصحراء، وآثارها التي تجلت في المدن والمراكز والطرق التجارية الواقعة على أطراف الصحراء وجنوبها، والتي تُظهر بشكل واضح دور التجار المسلمين في نشر الإسلام جنوب الصحراء الإفريقية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣٠ ديسمبر ٢٠١٨

تاريخ قبـول النشـر: ١٥ فبراير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

التجارة، المراكز التجارية، قوافل الحج، انتشار الإسلام، إفريقيا جنوب الصحراء

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.12816/0054914

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

شريفة كلاع، "دور التجارة وقوافل الحج في انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الثالث والأربعون؛ مارس ٢٠١٩. ص ١٢٥ – ١٣٣.

مُقَدِّمَةُ

تعتبر التجارة من الأنشطة التقليدية التي مارستها مختلف المجتمعات البشرية، إذ ساهمت حركة التبادل التجاري بين المجتمعات المختلفة في تنشيطها، وما ساعد على ربطها برباط قوي فيما بينها هو رباط المصالح المتبادلة والمشتركة، فالعملية التجارية عملت بكل قوة على انصهار الكثير من المجتمعات البشرية في مجتمعات أخرى، ومثلت ثقافاتها وعاداتها وتقاليدها، ولقد كان للتجارة دور هام في ربط الصلات بين العرب في المشرق العربي وشمال إفريقيا وشعوب بلاد السودان الغربي والأوسط، كما الحال مع غيرها من شعوب القارة الإفريقية، حيث أنشأ التجار العرب طرقا لقوافلهم بعيدة عن الشواطئ لكي يسهلوا أمور تجارتهم، فالذين استقروا في الشرق الإفريقي يغلب عليهم الطابع التجاري ولم تكن لديهم فكرة استعمارية، مثل استغلال الأرض ثم الانتشار فيها للداخل حيث لوحظ عدم اهتمام العرب بامتلاك الأراضي إلا بالقدر الضروري الذي يحمي مراكز الاستقرار، وبالإضافة إلى التجار العرب كان هناك التجار البربر الأمازيغ الذين قاموا بنشاط تجاري واسع، حيث

نمت تلك المبادلات التجارية في ظل الإسلام وبخاصة عن طريق رحلات الحج، فخدمها الإسلام وخدمته، حتى إن البعض يقول: "إن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير"، ويعتقد "ترمنجهام" أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الموصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان عبر الصحراء أو على طول ساحل المحيط الأطلسي، وهي التي قامت بدور جليل الشأن في نشر الإسلام في بلاد السنغال وأعالي النيجر ومنطقة بحيرة تشاد، وهذا التأثير لم ينقطع أبدا طوال العهد بالإسلام، وكانت المجتمعات الإسلامية الجديدة التي تنشأ تقوم بدورها في نشر الإسلام في هذه المناطق الواقعة إلى الجنوب، عن طريق التجارة والطرق التجارية، وبذلك أصبحت طائفة التجار أهم الطوائف التي نشرت الإسلام.

تكمن أهمية هذه الدراسة في الإجابة على التساؤلات التالية: إلى أي مدى ساهمت التجارة ورحلات الحج في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء؟ وما هي الآثار التي تحدث نتيجة العلاقات التجارية والالتقاء التجاري بين المسلمين وشعوب جنوب الصحراء؟ وما هي أهم المدن والمراكز والطرق التجارية؟، وللإجابة على هذه التساؤلات سنتناول المحاور التالية: العلاقات التجارية بين الشمال الإفريقي وممالك وشعوب جنوب الصحراء، وآثارها/ أهم المدن والمراكز والطرق التجارية على أطراف الصحراء وجنوبها/ دور التجار المسلمين في نشر الإسلام جنوب الصحراء.

أولاً: العلاقات التجارية بين الشمال الإفريقي وممالك وشعوب جنوب الصحراء، وآثارها

لقد كان للتجارة دور هام في ربط الصلات ما بين العرب في شمال إفريقيا، وشعوب بلاد السودان الغربي والأوسط، كما هو الحال مع غيرها من شعوب القارة الإفريقية[١]، فأغلب المصادر التاريخية تشير إلى وجود علاقات اقتصادية بين مناطق الشمال الإفريقي، ومناطق غرب إفريقيا ووسطها، إذا أن تلك العلاقات لم تزدهر إلا بعد الفتح الإسلامي لمصر وشمال إفريقيا، وتأتي أهمية هذه العلاقات التجارية إذا ما عرفنا أن الإسلام قد وجد طريقه إلى وسط القارة وغربها على أيدي التجار المسلمين في أغلب الأحيان[٢].

وكان لتطوير نظم التجارة وطرقها في عهد الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي، أثره في تسيير نشر الدعوة الإسلامية جنوب الصحراء، ومن أبرز هذا التطوير ما قام به حفيد الفاتح "عقبة بن نافع الفهري"، وهو "عبد الرحمان بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع، أواخر الحكم الأموي، من حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقيا وبين مدينة "أودغست"، مما مهد الطريق أمام القوافل التجارية للتوغل في غرب إفريقيا عبر الصحراء، بعد أن كانت مقصورة على الساحل. وكذلك كان لتمازج العلاقات الحضارية بين سكان السواحل الشمال مع حضارات حوض البحر المتوسط، فضلا عن علاقاتها بأوروبا دافعا مهما لتوجه التجارة داخل إفريقيا، وسلوكها لطرق القوافل الصحراوية التي تربط مدن الشمال الإفريقي بمدن الصحراء الداخلية المشهورة خاصة بتجارة الملح والذهب، فاخترقت القوافل التجارية الصحراء إلى الدولة الساحلية "غانا" التي تبوأت مكانة ذات شأن منذ القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر، وتبادلت مع أهلها التجارة، واتسمت تجارة تلك القوافل في ظل الإسلام بلون حضاري منظم تنظيما محكما، وظهرت بتأثيرها المدن الكبيرة والأحياء النظيفة الراقية في أراضي الأفارقة، وقد أفردت مملكة "غانا" في عاصمتها منطقة خاصة بهم، حتى أدت هذه الصلات التجارية إلى أن أعلن بعض الرؤساء في السودان الغربي إسلامهم ومنهم "وارجابي" حاكم "التكرور" على نهر السنغال[٣].

لقد جابت القوافل التجارية للتجار العرب المسلمين هذه الطرق التجارية خلال العصر الوسيط في اتجاهها نحو بلاد السودان الغربي، والتي كانت تشمل نهر السنغال ونهر غامبيار والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر، والجدير بالذكر أن التجار العرب بعد تغلغلهم في الصحراء الكبرى كان هدفهم الرئيسي الوصول إلى المراكز التجارية السودانية، وكان لهم ذلك بل أن بعضهم استقر في مدن السودان وأخذ يمارس أعماله التجارية، فأصبحت تلك المدن التجارية بدورها مراكز لقاء بين العرب والأفارقة جنوب الصحراء، ويظهر أثر ذلك واضحا في التأثير الإسلامي الحضاري في تلك المنطقة منذ القرن (٥هـ/ ١١م)[٤]. وقد شارك التجار الإباضيون الذين استقروا على أطراف الصحراء في واحات "فزان" و"جبل نفوسة"

و"ورجلان"، في التجارة عبر الصحراء واتسع نشاطهم منذ قيام الدولة الرستمية في "تاهرت" عام (١٦٠هـ/ ٧٦٦م)، حيث أشرفت هذه الدولة على التجارة الصحراوية، واهتمت بها وحفرت الآبار للقوافل وأرسلت الجنود بصحبة التجار لتأمينهم، وكان أكثر المسافرين للتجارة من السودان الغربي في عهد الدولة الرستمية يتجهون إلى مدينة "جاو"، إذ أسهمت جهود هؤلاء التجار الإباضيين في نشر الإسلام في "صنغاي" وتعريفه للأهالي(٥).

لقد ساعدت المعاملات التجارية والدبلوماسية بين الدويلات المغاربية وإمارة "صنغاي" والتي ترجع إلى القرن الثاني الهجري، في انتشار الإسلام في تلك البلاد، فقد كانت ظاهرة اقتران الإسلام بالتجارة ظاهرة معروفة في إفريقيا جنوب الصحراء، ففي كتاب "الدعوة على الإسلام" ذكر مؤلفه "توماس أرلوند" أن التجارة والإسلام متلازمان في القارة الإفريقية، إذ اعتنق تجار مملكة "صنغاي" بالإضافة إلى بعض سكانها الإسلام قبل الحكام ورجال الحاشية نتيجة اتصالهم بأقرانهم من بلاد المغرب، وكان التجار يرون في انتشار الإسلام جنبا إلى جنب مع نشاطهم التجاري تدعيما لهذا النشاط، إذ استمر الانتشار التدريجي للإسلام بين رعايا "صنغاي"، وحين أصبح المسلمون يشكلون جماعة كبيرة داخل مجتمع "صنغاي"، تحول الملك "زا كُسي" إلى الإسلام في بداية القرن الخامس الهجري، وبإسلام هذا الملك أصبح الإسلام دينًا رسميًا في "صنغاي" منذ عام (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)(٦).

وتؤكد شواهد القبور التي اكتشفت في منطقة "ساني Saney"، التي تقع على بعد أربعة أميال من مدينة "جاو"، قدم الإسلام في "صنغاي" وانفعال سكانها المسلمين بمظاهر هذا الدين وشعائره، وأقدم نقش عثر عليه في هذه المنطقة يعاد إلى عام (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) لسيدة مسلمة لا تنتمي إلى الأسرة الحاكمة تدعى "مكية بنت حسن الحاج"، فاسم صاحبة الشاهد يبين مدى التأثر بالإسلام وشعائره. فهذا الاسم جاء تيمنا بمدينة مكة التي تضم بيت الله الحرام قبلة المسلمين، ويتضح من اسم أبيها أنه ظفر بحج بيت الله الحرام بمكة المكرمة، والراجح أنه أنجب ابنته هذه بعد أداء فريضة الحج، وأطلق عليها الاسم تبركا بمكة، وعلى هذا يكون الأب قد أدى فريضة الحج في النصف الأول من القرن الخامس الهجري تقريبًا. وباعتناق "زا كُسي" الإسلام أصبحت "صنغاي" مملكة إسلامية، وقد قام هذا الحاكم بتأسيس أول عاصمة لمملكته في مدينة "جاو" التي اشتهرت بعدة مسميات، أهمها "جاو، كوكو، غاو، وكاغ"، وتقع هذه المدينة عند بداية الثنية الثانية لنهر النيجر، وهو يبعد عنها بأكثر من ستة كيلومترات، وقد خضعت "صنغاي" في القرن السابع للهجري لدولة مالي الإسلامية(٧).

إن دخول الإسلام غرب إفريقيا وانتشاره فيها، مرتبط بوصوله إلى شمال القارة لأن الإسلام انتقل من شمالها إلى غربها بواسطة التجار المسلمين والعلماء، والدعاة وملوك الممالك الإسلامية الشمالية، وسبب هذا الانتقال للإسلام من شمال القارة إلى غربها عبر دول الشمال هو وجود صلات تجارية قديمة بين شمال القارة وغربها، بالإضافة إلى الحدود المفتوحة بين دول المنطقة، وهو ما سهل هجرة بعض المسلمين الشماليين إلى المناطق الغربية والإقامة فيها، ومن ثم حملوا معهم نور الإسلام وثقافته ونشروه هناك(٨).

أما عن الآثار الذي نتجت عن تلك العلاقات التجارية، فقد كانت القوافل التجارية تحمل معها إلى بلاد الساحل جنوب الصحراء الإفريقية الآلاف من البشر، مما جعل أثر تجارة القوافل ملموسة في غرب إفريقيا، إذ قامت التجارة بتعميق العلاقات الثقافية، فأنشئوا المدارس لتعليم القرآن وأقاموا المساجد، وإلى جانب مزاولتهم للنشاط الاقتصادي فإنهم مارسوا نشاطا تعليميا كذلك، فالتاجر العربي كان يجمع بين الدعوة وبيع سلعته، فكان يقوم بنشر اللغة العربية التي هي لغة القرآن عن طريق استعمالها في معاملاتهم مع الأهالي، فانتقلت نتيجة لذلك أسماء الأوزان والمقاييس والمكاييل إلى اللغات المحلية، إضافة إلى ذلك فقد تم الامتزاج بين التقاليد الإسلامية الوافدة من البلاد العربية وبين التقاليد الإفريقية المحلية، وتمت الملائمة بين العنصرين العربي والإفريقي(٩).

وعندما يحل التجار ببلاد جنوب الصحراء الإفريقية، كانوا يختلطون بسكانها ويتزوجون منهم، وينشئون قرى جديدة في طريقهم حيث يكونون لأنفسهم جاليات إسلامية تقيم إقامة دائمة بالبلاد التي ينزلون بها، كما أقاموا مراكز تجارية ومرافئ للمراكب والسفن وشيدوا المساجد، حيث لا يزال بعضها باقيا إلى الآن، وكانوا يفتحون المدارس القرآنية في هذه الأماكن، مما جعل سكان المناطق التي يحلون بها يقتدون بهؤلاء التجار في تصرفاتهم ومعاملاتهم

وسلوكهم اليومي في الحياة[١٠]. لقد أوجد الإسلام قيما اجتماعية تخالف ما كان سائدا في البلاد الإفريقية جنوب الصحراء، فأزال موانع احتقار بعض الحرف كالحدادة والدباغة، بل جعل من الحرف اليدوية على اختلافها حرفا مباركة[١١]. إن حرفة التجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة بالمجتمع، فاحتكاكهم المباشر بالسكان يجعلهم يؤثرون فيهم، وغالبا ما ينتهي هذا الاحتكاك بدخول كثير من سكان أقاليم جنوب الصحراء في الإسلام، بالإضافة إلى ذلك فإن موقف الإسلام من الرق وتيسير المواصلات ساعد على ترويج التجارة، ومكن التجار المسلمين من أن يبسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل[١٢].

ثانيًـا: أهـم المـدن والمراكـز والطـرق التجارية على أطراف الصحراء وجنوبها

كانت هناك مراكز هامة في شمال إفريقيا ينطلق منها الدعاة المسلمون نحو غربي القارة الإفريقية، وقد أدى "شمال إفريقيا" دورا بارزا في نشر عقيدة وحضارة الإسلام فيما وراء الصحراء الكبرى، حيث أثر أيما تأثير على مسلمي تلك البلاد، فمن شمال إفريقيا جاء وساد المذهب المالكي، ومنه وفدت الطرق الصوفية "القادرية، التيجانية، والشاذلية[١٣]. وفي ظل الأخوة الإسلامية أقيمت في المدن الإفريقية الأسواق تقليدا لأسواق المغرب العربي، وبما أن العرب المسلمون أول من تغلغل في مجاهل القارة الإفريقية بسيطرتهم على المواصلات وطرق القوافل، كان هناك طريق "سلجماسة" أو "داغشت – كومبي" عبر الصحراء الموريتانية، وهو يمر بالسوس الأقصى، وطريق "أرواف" في صحراء موريتانيا إلى "سلجماسة" في المغرب (بالقرب من مراكش) ومن "طومبكتو – غاو – توات – ورغلا" (صحراء الجزائر)، ومن "غاو – نكادا – مرزوق فطرابلس" (ليبيا)، ومن "نكادا" إلى "أغادس" فتشاد فالفشر (في السودان العربي)، فالبحر الأحمر أو القاهرة، ومن "كانو" بنيجيريا إلى "تيبتي" في صحراء النيجر، فواحة "مرزوق" (افزان) فبرقة فالإسكندرية. وهكذا نظم الإسلام التجارة ووسائل التبادل، فقد وفد العرب المسلمون تجارا دعاة نقلوا تجارة ودينا وحضارة[١٤]، منشئين مراكز تجارية تقع على الطرف الشمالي من الصحراء الكبرى، كانت تنطلق منها قوافل التجار[١٥]، مما جعل الطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرى تقوم بدور كبير في تاريخ المنطقتين على طرفيها الشمالي والجنوبي[١٦].

ويعتبر "ابن حوقل" (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) من أشهر مؤلفي القرن الرابع الهجري الذين تناولوا مسالك الصحراء، فترك لنا معلومات غنية في كتابه (صورة الأرض) الذي جمع مادته من إفريقيا أثناء تجواله واشتغاله بالتجارة، وقد وقف "ابن حوقل" على أحوال المنطقة فجاءت معلوماته دقيقة عن الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، ويبدو ذلك من خلال وصفه أن النشاط التجاري ربط المنطقة كلها ربطًا تاما ما بين "سلجماسة" و"أودغست" غربا حتى "زويلة" شرقا، وبين ارتباط المنطقة بتجارة حوض البحر المتوسط[١٧]. كما تناول "ابن خلدون" (٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م) في القسم الجغرافي من مقدمته (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر)، منطقتي الصحراء وغرب إفريقيا في الإقليمين الأول والثاني، فتطرق إلى "أوليل"، "غانا"، "تكرور"،"مالي"، "كوكو"، و"كانم"، وتحدث عن حركة القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى، وعن قبائل "هوارة" ومواطنهم في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، ووضح النشاط التجاري لتلك القبائل من مراكزهم الصحراوية مثل "ورقلان" و"ولاته" و"لوات" ومركز "فزان"، كما وضح "ابن خلدون" مساهمة تلك القبائل الكبيرة في خدمة التجارة عبر الصحراء الكبرى، كأدلاء للقوافل أو حراس لها مقابل ما كانو يأخذونه من ضرائب تدفعها تلك القوافل[١٨].

لقد سلك حجاج بلاد إفريقيا الغربية عدة طرق للوصول إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وفيما يلي عرض لأهم هذه الطرق:

١. طريق تبدأ من "نياني" عاصمة مملكة مالي، مرورا بمدينة "تنبكت" فـ"ولاته"، ثم إلى إقليم "توات"، وقد سلك "منسا موسى(*)" في حجه عام (٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م) هذه الطريق، وكان أكثر حجاج إفريقيا من السودان الغربي يسلكونها[١٩].

٢. أما الطريق الأخرى فتبدأ من "تكدا" شرق السودان الغربي في إفريقيا، ثم تمر بمدينة "غدامس"، وكانت تمثل أهم المراكز الصحراوية في استقبال قوافل الحجاج، والتي قال عنها "ابن خلدون": "استبحرت في العمارة، واتسعت في التمدن، بما صارت محطًا لركب الحجاج من السودان"، ثم تستمر هذه الطريق حتى بلدة "تاجورة"، ثم إلى مصر، وقد

سلك الملك "ساكورة" (٦٨٤ – ٥٧٠٠/ ١٢٨٥ – ١٣٠٠م) هذه الطريق في رحلة حجه، ثم قُتل بالقرب من "تاجورة" إثر اعتداء تعرض لم من قبل بعض قبائل البدو المقيمة هناك.

٣. طريق الدرب الصحراوي، والتي تعرف بطريق "غات" التي تقع في جنوب غرب ليبيا، وكانت هذه الطريق تمر عند أهرامات الجيزة في مصر.

٤. طريق نحو الشرق، ثم سودان وادي النيل ثم تتصل بساحل البحر الأحمر، إلى أن تصل إلى الحجاز[٢٠].

وقد كان هناك عاملان كانا يتحكمان في خط سير ركب الحجيج، الأول قام بالحرص على توفير ما من شأنه أن يحافظ على سلامة الحجاج، أما الثاني أحدث التعاون التام بين سلاطين الأقاليم الإفريقية وحكام البلاد التي يمرون بها، ويشمل الاهتمام بتوفير الأمن وحماية الحجاج من أية اعتداءات، وتسهيل دخولهم وخروجهم من أراضيهم[٢١]. إن الإسلام والتجارة حسب ما يعتقد "ترمنجهام" يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الموصلة بين بلاد المغرب، وبلاد السودان عبر الصحراء أو على طول ساحل المحيط الأطلسي، وهي التي قامت بدور جليل الشأن في نشر الإسلام في بلاد السنغال وأعالي النيجر ومنطقة بحيرة تشاد، وهذا التأثير المغاربي لم ينقطع أبدًا طوال العهد بالإسلام، إذ كانت المجتمعات الإسلامية الجديدة التي تنشأ في شمال السودان تقوم بدورها في نشر الإسلام، في هذه المناطق الواقعة إلى الجنوب عن طريق التجارة والطرق التجارية[٢٢].

ويتضح من العرض الذي تقدم أن طرق الحج ومسالكه، هي نفسها الطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرى، والتي قامت بدور كبير في تاريخ المنطقتين على طرفيها الشمالي والجنوبي في نشر دين الإسلام وتعاليمه. ولِما كانت تتعرض له قوافل الحجاج أو التجار في بعض الأحيان من مخاطر، من قطاع الطرق وانعدام الأمن، إلى جانب تقلبات المناخ التي كثيرا ما كانت تتسبب في ضياع القوافل وعطشها وموت أفرادها، اعتمد السلاطين على تعيين رؤساء للقوافل، إلى جانب تنظيم بعض الحرس المزودين بالأسلحة، للحد من عمليات النهب والقتل التي كانت تحدث، كما عقدوا معاهدات مع شيوخ القبائل القوية مقابل مبلغ من المال، بهدف حماية قوافل الحج والتجارة أثناء مرورها عبر أراضيها[٢٣].

ومن ضمن الاستعدادات للحج أن يزود ركب الحج بالماء والزاد وأنواع الأطعمة، والقضاة والمؤذنين والأئمة والأطباء، والعلماء والفقهاء والكثير من العساكر لحماية القافلة من الغارات وفي المقدمة دليل للقافلة، إضافة إلى انضمام الكثير من أهالي الأقاليم التي يمرون بها رغبة في الحج، منذ بداية رحلتها وحتى وصولها المشاعر المقدسة في مكة والمدينة، ولتجنب مخاطر الطريق كان الحجاج يسلكون أكثر الطرق أمنا، ويعد طريق "فزان" وواحاته من الطرق المفضلة للحجاج على مر العصور، فارتفعت مكانة "فزان" بسبب مرور قوافل الحجاج بها، حتى أصبحت ملتقى لحجاج شمالي إفريقيا والسودان الغربي، ... ما جعل منها سوقا حافلة بأنواع النشاط التجاري في كل عام.

ومن ضمن تنظيم القوافل في حلها وترحالها الاهتمام بالتكشيف، حيث كان يخرج أحد أفرادها قبل مدة وجيزة ليخبر بقدوم القوافل قبل وصولها إلى بلادهم، فكانوا يخرجون لمسافة أربعة أيام يحملون معهم الطعام والماء، كما أن بعض القبائل تبيع الماء للحجاج، وخصوصا في الأماكن التي ينعدم فيها وجوده بها، وكان سكان القرى والواحات يستقبلون الحجيج أحسن استقبال وأيما إكرام، كما أحسنوا ضيافتهم وقدموا لهم كل مساعدة يحتاجون إليها، وأعفوا الحجاج من الضرائب التي تؤخذ على البضائع التي يحملونها معهم. لقد كان الحجاج الأفارقة يحرصون على أداء مناسك الحج بالطريقة الصحيحة التي وردت عن الرسول عليه الصلاة والسلام، مستفيدين من دروس العلماء المصاحبين في الرحلة وفتاويهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم، كما كانوا يحرصون على أعمال الخير والإكثار من التصدق على فقراء الحرم والإنفاق على الفقراء والمساكين[٢٤].

ثالثًا: دور التجار المسلمين في نشر الإسلام جنوب الصحراء

من أهم رسل الدعوة الإسلامية في إفريقيا التجار المسلمين الذين وفدوا على أجزاء القارة المختلفة بهدف أصلي هو التجارة، وإن كان قد تبعه أثر مهم هو نشر الإسلام. وكان هؤلاء التجار من العرب والبربر من قبائل شمال إفريقيا ممن حملتهم القوافل عبر الصحراء، التي مثلت جسرا انتقل عبره الإسلام والثقافة والحضارة الإسلامية من الشمال إلى المنطقة التي

تلي جنوب الصحراء مباشرة في بدء الأمر، والتي يطلق عليها حاليًا منطقة الساحل، ثم سلم هؤلاء التجار الدعوة وبطريقة تلقائية لشعوب المنطقة السودانية الذين قاموا بحمل راية الإسلام، حيث كان من أهمهم في غرب إفريقيا "الديولا" من قبائل "الماندي"، و"الهوسا" في نيجيريا وغرب إفريقيا، أما عن شرق إفريقيا فقد حدث نفس النمط تقريبا، إذ انتقل الإسلام مع التجار العرب على أيدي السواحليين – من المواطنين الإفريقيين – الذين اسلموا أولا، وتأثروا بالتراث الإسلامي والذين أصبحوا هم دعاة الإسلام للداخل الإفريقي[٢٥].

وبوصول الإسلام إلى غرب إفريقيا في القرن العاشر الميلادي عبر الطرق التجارية التالية:

١ – طريق شمال إفريقيا نحو "تمبكتو" ابتداءً من "فاس" و"تلمسان" و"القيروان" و"طرابلس الغرب".

٢ – طريق شمال إفريقيا نحو منطقة "بحيرة تشاد" انطلاقًا من "المهدية" في تونس و"طرابلس الغرب" وطبرق".

٣ – طريق "القاهرة" – منطقة "بحيرة تشاد" عبر وادي النيل[٢٦].

قام التجار المسلمون بدور جليل في انتشار الدين الحنيف في تلك المناطق، بالرغم من أن القليل منهم كان يجيد الفقه والفكر الإسلامي لعدم استطاعته التفرغ لها، فإن معظمهم قام باستقدام الفقهاء والعلماء لهذه المناطق وخاصة عندما يكثر عدد المسلمين بها، ليتولى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم وشرح حضارته لهم، وقد عمد بعض التجار إلى تشييد المدارس والمساجد وكثيرا ما كانوا يختارون الطلاب من السكان المحليين لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في مصر أو الشمال الإفريقي ليتلقوا مزيدًا من العلم، وليعودوا قادة للفكر الإسلامي في بلادهم، وعندما كثر إقبال الإفريقيين على السفر للتعلم في المعاهد العلمية الشهيرة عمد كثير من التجار المسمين ببناء بيوت لهم يعيشون بها طيلة التحاقهم بهذه المعاهد، كما قدم هؤلاء التجار ما احتاجه الطلاب من نفقات ومصروفات[٢٧].

لقد ساهمت حركة كثير من الأفارقة لأداء فريضة الحج وطلب العلم في "القيروان" و"فاس" و"الأزهر"، وفي "مكة المكرمة" و"المدينة المنورة" في نشر الدعوة والعلوم الإسلامية، ونهضت تلك البلاد التي أمّها المسلمون الإفريقيون بشتى الأغراض بما ينبغي عليها من الوفاء الذي سجله التاريخ من تيسير الرحلة وحسن الاستقبال وتيسير سبل العلم، وبجانب تبادل المنافع التجارية، اختلطت دماء الإفريقيين بغيرهم من المسلمين مما زاد الرابطة ووثق العلاقة، فأدى هذا كله إلى تجاوز شهرة المدن الإفريقية الزاهرة حدود القارة الإفريقية[٢٨]. ومن أمثلة ذلك فقد ازدهرت مدينة "تمبكتو" في مجال التعليم ونشر الثقافة الإسلامية، إذ انتشر المرابطون في القرى يعلمون القرآن الكريم والكتابة العربية، وكان أبناء المشايخ يأتون إلى "تمبكتو" لتحصيل العلم، فلم تكن "تمبكتو" سوقًا للتجارة وسط إفريقيا فحسب، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وصارت هذه المدينة التي منذ سنة ١٠٧٧ م مركزًا للدعوة الإسلامية تشع منها إلى كل الجهات، ومنذ القرن الثاني عشر كان الإسلام قد انتشر في بلاد النيجر والسنغال الأعلى ووصل إلى بحيرة تشاد في القرن الثالث عشر[٢٩].

أدى ثراء التجار المسلمين آنذاك دورا كبيرا في تحسين صورة الإسلام في غرب إفريقيا، فساعد ذلك الغنى التاجر المسلم على بناء منزل جميل وعلى الظهور بمظهر الكرم والسخاء، مما جعل هذا المنزل ملاذا للمحتاجين ومكانا يتطلع له الأذكياء ومحبو الاستطلاع والطموحين، إذ اهتم التجار المسلمون بالطرق والأمن وحددوا المكاييل والموازين والمقاييس السليمة، حيث كان التاجر لا يستطيع أن ينسى وهو يعامل الآخرين قوله تعالى: "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ"[٣٠]. وقد أشاع هذا التعامل جوا من الثقة والتقدير، فلقي التاجر المسلم ترحابا أينما حل، مما سهل عملية تبادل السلع والأفكار فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار والذيوع مع التجارة والتجار[٣١].

وكان التجار المسلمون يقيمون الصلاة سواء كانت فردًا أو جماعة أم جمعة، ولا يشربون الخمر ولا يأتون المنكر ومستواهم الخلقي غالبًا طيب للغاية، وقد جذبت هذه الصفات الحميدة كثيرا من السكان المحليين للانضمام إلى دين هؤلاء التجار، كما تزوج كثير من التجار المسلمين المقيمين من النساء المحليات وكن هؤلاء في معظم الأحيان من بيوت رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ، مما ساعد دخول هؤلاء الرؤساء في

دين أصهارهم فتتبعهم باقي القبيلة، وأدى تعدد الزوجات دورا مهما في خدمة الإسلام، فكان هذا الزواج معروفا في تلك المناطق ولكن من دون ضوابط أو حدود، فجعله الإسلام مشروطا بالعدالة ولم يسمح بأن يتجاوز عدد الزوجات أربعا، وكانت الضرورة تقضي في هذه الظروف بعدد الزوجات فالتاجر ترك زوجته في وطنه ويعسر عليه أن يعيش عدة شهور دون زوجته، ومن هنا يتخذ له زوجة في المكان الذي يتجر فيه ويصبح بيته مركزا إسلاميا يؤدي دورًا كبيرًا في خدمة الإسلام. وأدت التجارة أيضًا في وصول الإسلام إلى الطبقة الحاكمة في بعض ممالك إفريقيا الغربية، فمع ازدياد العلاقات التجارية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين تطور الحضور الإسلامي في ممالك مثل مملكة "غانا"، مما أدى إلى وجود مستشارين مسلمين في البلاد الملكي، الأمر الذي ساعد على توطيد وتعزيز الإسلام في تلك المنطقة[٣٢].

كما ترجع أهمية التوسع الإسلامي في غرب إفريقيا إلى قيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري، حيث توصف هذه الفترة بأنها فترة انتعاش الإسلام، وكان أبرز مظاهر هذه الحركة الاندفاع نحو الجنوب إلى جبال "أدرارس"، ثم إلى بلاد موريتانيا ثم إلى نهر السنغال، حتى إذا كان القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) اتسعت حركة انتشار الإسلام واللغة العربية في هذه المناطق، ولم تلبث أن اتسعت في القرن العاشر الهجري حيث استطاع الإسلام أن ينتشر بين القبائل، ويحل محل الديانات الوثنية في السنغال، حيث اعتنق الإسلام حوالي مليون وثلاثمائة ألف من مليونين هم مجموع السكان آنذاك. وفي مالي (السودان الفرنسي سابق) تأسست في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دولة بربرية عملت على نشر الإسلام فيها، إذ زادت نسبة المسمين فيها إلى أكثر من (٦٠ %)، وفي غامبيا وغينيا انتشر الإسلام انتشارا هائلا، وكان لقبيلتي "الفولاني" و"الإلمامية" أثر كبير فأصبحت الأغلبية مسلمة، حيث قامت دولة إسلامية واسعة، كما أنشأ الطوارق سلطنة بربرية منذ القرن العاشر الهجري فانتشر الإسلام في هذه المناطق[٣٣].

لقد انتشر الإسلام في السودان الأوسط في القرن الحادي عشر، وذلك عندما اعتنق حاكم دولة "كانم" الإسلام، إلا أن الإسلام الموحد المندمج كان خلال القرن الرابع عشر، كنتيجة لنشاطات التجار وعلماء الدين ووصول الأشراف، فكان دخول الإسلام يتم تدريجيا وبسلام عن طريق الدعوة والتأثير التجاري، وليس عن طريق الغزو، إذ سهل انتشار الإسلام لظهور المستوطنات التجارية على طول طريق التجارة في الساحل والصحراء، وكانت المراكز التجارية الرئيسية بمثابة مناطق حاضنة تعزز انتشار الإسلام[٣٤]. وفي هذه الفترة استطاع التجار المسلمون والدعاة المنقطعون للدعوة للإسلام، إدخال العديد من القبائل الوثنية في الإسلام في "تنجانيقا" و"كينيا" و"زنجبار"، واستطاعت بعض هذه الأمم أن تجعل الإسلام دين الأغلبية فيها كما حدث في أوغندا، حيث كان للتجارة أثرها الواضح في إدخال الناس في الإسلام نتيجة لهجرة العمال من قبائلهم التماسا للرزق[٣٥].

كان لرحلة الحج فوائد كثيرة تركت علاقات مميزة في استمرار العلاقة بين غرب إفريقيا خاصة، ومركز العالم الإسلامي في مكة والمدينة المنورة، وقد ساهمت هذه الرحلة في تصحيح عقائد القبائل، فقد كان الحجاج يعودون بعد أداء الفريضة، وهم أكثر وعيا وحماسة لدينهم. لقد أصبحت رحلة الحج وسيلة من وسائل الاتصال، فكانوا يتصلون بالعلماء والمهندسين يأخذونهم إلى بلادهم لتطوير الإدارة بها، ولرفع المستوى الثقافي والعمراني، ومن أمثلة ذلك سفر الساحلي المعماري الأندلسي مع "متاموس" حيث شيد له مسجدين وقصرا في "جاو" و"تمبكتو" على الطراز الأندلسي مما جعل هذا الطراز هو الغالب في تلك البلاد[٣٦]. وكان أيضًا لقوافل التجارة والحج في رحلتها كل عام إلى مكة، أن جعلت حجاج السودان الغربي على اطلاع بمختلف الأحداث والعلوم التي تدرس، وخلال مرورهم بالبلاد الإسلامية وبعد انتهاء موسم الحج، يعودون إلى بلادهم وقد انتهوا من أداء فروضهم الدينية واطلعوا على آثار الصحابة رضي الله عنهم والعلماء، ودرسوا شتى العلوم العربية والإسلامية، الأمر الذي ساعدهم في نشر الإسلام والدعوة وإرشاد الناس وتوجيههم[٣٧].

ولرحلات التجارة والحج تأثير كبير على سكان البلاد من خلال شعورهم بالأخوة الإسلامية، التي تمثلت في الالتقاء بجميع إخوانهم المسلمين من شتى المناطق الإسلامية على اختلافها، يقول "ترمنجهام: "إن الشعور بأن الإسلام دين الأفارقة جميعًا، كان شعورا يتملك المسافرين من الأفارقة الحجاج"، إذ وطد الحج

علاقة الأفارقة بالإسلام، وأصبح خروج المسلمين في غربي إفريقيا ملوكا وشعوبا إلى الحج واتصالهم بالشعوب الإسلامية المختلفة في المغرب ومصر والحجاز تأكيدا لروح الأخوة الإسلامية التي فرضها الإسلام[٣٨]. وعليه فقد أسهمت رحلات الحج في انتشار وازدهار الحركة العلمية في إفريقيا من خلال عدة أوجه، والحقيقة أن حكام الممالك الإسلامية الإفريقية كانوا يستفيدون من رحلاتهم الحجية، فإلى جانب أداء هذه الفريضة كانوا يتصلون بالعلماء والفقهاء، ويرحلون معهم إلى بلادهم، وهذا ما ساعد على رفع مستوى الناس الثقافي، وتطوير الدولة في جميع مرافقها وشؤونها[٣٩].

خَاتِمَةٌ

إن دخول الإسلام إلى بلاد إفريقيا جنوب الصحراء وانتشاره بها، ارتبط بوصوله إلى شمال القارة الإفريقية، لأن الإسلام انتقل من شمالها إلى إفريقيا جنوب الصحراء، وبخاصة غرب القارة بواسطة التجار المسلمين والعلماء والدعاة، وسبب انتقال الإسلام إلى هذه المناطق هو وجود صلات تجارية قديمة بين تلك المناطق، إضافة إلى الحدود المفتوحة بين الأقاليم، وهو ما سهل هجرة بعض المسلمين من الشمال إلى المناطق الغربية والإقامة فيها، ومن ثم حملوا معهم الإسلام وثقافته ونشروه هناك.

وبحكم الموقع الجغرافي لدول المغرب الإسلامي جعله ذلك يرتبط ارتباطًا عضويًا بالكيان الإفريقي، إذ لعبت التجارة دورًا بارزًا في ربط العلاقات بينهما، من خلال القوافل التجارية التي كانت تجوب الإقليمين، كما ارتبطت بلاد المغرب الإسلامي بشبكة من الطرق التجارية في غاية الأهمية مع بلاد السودان الغربي ومنطقة إفريقيا جنوب الصحراء، فسهلت هذه الطرق على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري، الأمر الذي أحدث مدنا ومراكز تجارية على أطراف الصحراء وجنوبها، فكان للعلاقات التجارية بين الشمال الإفريقي وممالك جنوب الصحراء أثر كبير في ازدهار التجارة، ونشر العادات والتقاليد العربية والإسلامية وبالتالي نشر الدين الإسلامي تدريجيا، والذي يتضح بشكل جلي من خلال دور التجارة وقوافل الحج في انتشار الإسلام في أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء، إذ ساهمت حركة كثير من الأفارقة لأداء فريضة الحج وطلب العلم في القيروان وفاس والأزهر، ومكة المكرمة والمدينة المنورة، في نشر الدعوة والعلوم الإسلامية وهذا بجانب تبادل المنافع التجارية، مما زاد من توغل الإسلام في ممالك ما وراء الصحراء.

الهَوامِشُ:

(١) عبد الله سالم محمد بازينة، **انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء**، (مصراته، ليبيا، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٠)، ص. ١١٣.
(٢) عبد الله سالم محمد بازينة، مرجع سابق، ص. ١٢٧.
(٣) نفس المرجع، ص. ١٢٨ – ١٢٩.
(٤) خالد بلعربي، "**تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط**"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع. ١٥، ٢٠١١، ص ٣٨.
(٥) حسين سيد عبد الله مراد، "**مملكة صُنغاي**"، قراءات إفريقية، ع. ١٣، سبتمبر ٢٠١٢، ص. ١٤.
(٦) حسين سيد عبد الله مراد، مرجع سابق، ص. ١٥.
(٧) نفس المرجع، ص. ١٥ – ١٦.
(٨) بدر حسن شافعي، "**الدعوة الإسلامية في إفريقيا**. نجاحات بالرغم من التحديات"، قراءات إفريقية، ع. ١٣، سبتمبر ٢٠١٢، ص. ٨ – ٩.
(٩) خالد بلعربي، مرجع سابق، ص. ٣٩.
(١٠) عبد الله سالم محمد بازينة، مرجع سابق، ص. ١١٦.
(١١) زينب بيلا تاسيريانكيني، "**التفاعل الديني الاجتماعي في بوركينافاسو: الأرواحية والإسلام نموذجًا**"، قراءات إفريقية، ع. ٢٤، أفريل – جوان ٢٠١٥، ص. ١٥.
(١٢) عبد الله سالم محمد بازينة، مرجع سابق، ص. ١١٧.
(١٣) "**طرق انتشار الإسلام في غربي إفريقيا**"، نقلاً عن الرابط: http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=4&ChapterId=4&BookId=212&CatId=0&startno=0
(١٤) "**أثر الإسلام في الحياة الاقتصادية في غرب إفريقيا**"، مجلة دعوة الحق، ع. ٦٣، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (٢٠١٦/٣/١٤)، نقلاً عن الرابط: http://www.habous.gov.ma/daouatalhaq/item/1404
(١٥) "**طرق انتشار الإسلام في غربي إفريقيا**"، مرجع سابق.
(١٦) إبراهيم محمد أحمد بلولة، "**الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية**"، دراسات دعوية، ع.٩، فيفري ٢٠٠٥، ص. ٦٧.
(١٧) نفس المرجع، ص ص.٦٩ – ٧٠.
(١٨) إبراهيم محمد أحمد بلولة، مرجع سابق، ص. ٧٥.
*منسا موسى: سلطان مالي تعد رحلته للحج في عام ٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤ من أهم رحلات الحج.
(١٩) أمل بنت صالح الشمراني، "**الرحلات الإفريقية للحج**"، قراءات إفريقية، ع. ٢٦، أكتوبر – ديسمبر ٢٠١٥، ص. ٨.
(٢٠) أمل بنت صالح الشمراني، مرجع سابق، ص. ٨ – ٩.
(٢١) نفس المرجع، ص. ٩.
(٢٢) عبد الله سالم محمد بازينة، مرجع سابق، ص. ١١٥.
(٢٣) أمل بنت صالح الشمراني، مرجع سابق، ص. ٧.
(٢٤) أمل بنت صالح الشمراني، مرجع سابق، ص. ٨.
(٢٥) حورية توفيق **مجاهد، إفريقيا قارة الإسلام: انتشار الإسلام في إفريقيا في القرن العشرين**، (دون ذكر مكان ودار وسنة النشر)، ص. ٦٦.
(٢٦) محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريرية، **المسلمون في غرب إفريقيا: تاريخ وحضارة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧)، ص. ٣٩.
(٢٧) محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريرية، مرجع سابق، ص. ٣٩.
(٢٨) إبراهيم محمد أحمد، مرجع سابق، ص. ٨١.
(٢٩) نفس المرجع، ص. ٨٢.
(٣٠) سورة المطففين، الآيات ١ – ٥.
(٣١) محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريرية، مرجع سابق، ص. ٤٠.
(٣٢) محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريرية، مرجع سابق، ص. ٤٠ – ٤١.
(٣٣) إبراهيم محمد أحمد، مرجع سابق، ص. ٧٩ – ٨٠.
(٣٤) حسين أحمد، "**انتشار الإسلام في إفريقيا. دور العلماء والتجار**"، نقلاً عن الموقع المتخصص في قضايا الإسلام في إفريقيا، (٢٠١٦/٣/١١)، على الرابط التالي: http://www.islam4africa.net/ar/more.php?cat_id=18&art_id=128
(٣٥) إبراهيم محمد أحمد، مرجع سابق، ص. ٨٠.
(٣٦) نفس المرجع، ص. ٨٢.
(٣٧) أمل بنت صالح الشمراني، مرجع سابق، ص. ١٢.
(٣٨) نفس المرجع، ص. ١٢ – ١٣.
(٣٩) نفس المرجع، ص. ١٥.